الخطبة الخامسة والثلاثون

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾

[النساء: 4/ 115]

الحمد لله رب العالمين، حمداً كثيراً طيباً ملء السموات والأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت يا رب العالمين، اللهم لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد كله، والشكر كله، والثناء الجميل يا إله العالمين، أما بعد:

1 - قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: 4/ 115].

يشاقق: منها المُشاقَّة والشِقاق أي: الخلاف والعداوة، أي: أن من يخالف رسول الله ﷺ في أمره ونهيه من بعد ما تبين له الحق، والحق هنا أنه ثبت لديه بدون شك أن رسول الله ﷺ قال: ذلك حقيقة، وأن هذا الأمر معناه هكذا حقيقة، وأن الصحابة فهموه على هذا النحو وعلى هذا المناط حقيقة، ثم اتبع ونهج منهجاً يخالف فيه أمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ ومنهج الصحابة الكرام ومنهج المؤمنين، فهذا المخالف وهذا المُعَاند يتوعده الله تعالى بجهنم وسوء المصير لقوله تعالى: (نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى) كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: 61/ 5]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [البقرة: 2/ 15]، من اختار المخالفة اختار الضلال فإن الله تعالى يمده في ضلاله وغيّه ومخالفته ويكون مصيره جهنم وساءت مصيراً، وهذا عين الفهم للآيات: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت: 41/ 46]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [الحج: 22/ 10].

2 - هذه الآية واضحة جلية في أن الإسلام قد تجلى علماً وعملاً وفهماً، فالرسول ﷺ جاء بالإسلام وحياً من ربه وعاشه واقعاً عملياً وتعاليم الإسلام النظرية طبقت عملياً وفهمها الصحابة الكرام، وقد سأل أحدهم مرة: إن في الصحابة من زنا؟! وفيهم من سرق؟! وفيهم من كَذَّبَ؟! وفيهم من فرّ من المعركة؟! وفيهم وفيهم... نعم، وأجاب بعض العلماء عن هذا فقال: إن هذا من الإعجاز الرباني فقد وقعت هذه الأخطاء من الصحابة، وقام رسول الله ﷺ بتطبيق الحدود حتى يكون الإسلام بتعاليمه قد طُبِّقَ عملياً، وهذا لا يدع لأحد مجالاً في التخبط في النصوص وفي تطبيقاتها وبهذا يكون الإسلام نصاً وتطبيقاً عملياً وواقعاً، وقد قالت السيدة عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن رسول الله ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن» رواه البخاري وغيره، أي: أنه عاش القرآن وتعاليمه وأحكامه وأن السنة جاءت كتطبيق عملي لما نصّ عليه القرآن الكريم.

3 -والمصيبة التي نعيشها اليوم أننا نجد من يفسر النصوص ويعيش الإسلام بشكل لم يعرفه الصحابة والتابعون، ويقولون: هذا هو الإسلام وهذا هو التفسير الصحيح للإسلام. وكلٌ يدّعي أنه من أهل السنة والجماعة وكلٌّ يدّعي أنه على منهج رسول الله ﷺ والكلُّ يدعي الحق لنفسه.

وأقول ما قاله الله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النساء: 4/ 115]، فكلام رسول الله ﷺ وفهم الصحابة الكرام أمران متلازمان، ولذلك أي تفسير لأي نص ليس هو كما جاء عن الصحابة وليس هو كما فهمه الصحابة، وليس هو كما طبقه الصحابة فهذا التفسير باطل ومردود بموجب هذه الآية.

- عن عمران بن الحصين رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان» صحيح الجامع (239)، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلون» حم - حل - طب، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من تعلم علماً مما يبتغى

به وجه الله، لا يتعلمه إلا ليصيب به عَرَضاً من الدنيا لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة» حم - د - هـ - ك، (العَرْف) هي: الريح، طيبة كانت أو منتنة، وريح الجنة يوجد من مسيرة خمس مئة عام كما جاء في الحديث.

وعن كعب بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من تعلم العلم ليباهي به العلماء، أو ليماري به السفهاء، أو يصرف وجوه الناس إليه، أدخله الله النار» الترمذي، (ليماري به السفهاء) المماراة: المجادلة، أي: حباً في الجدال وحباً في الظهور، ولذلك قوله ﷺ: «أو يصرف وجوه الناس إليه» وليس حباً في التعلم أو معرفة الحقيقة. والمِرْية هي الشك كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [هود: 11/ 17]، وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ [فصلت: 41/ 54].

4 - وأريد أن أنوه إلى لفتة جميلة في الآية وهي قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾ [النساء: 4/ 115]، والمشاقة هي المخالفة، وهي أيضاً أن تكون أنت في شق والآخر في الشق المقابل، أي: أنك ضد أو في مواجهة، والكل يؤدي إلى المخالفة والعداوة، النقطة هي أن من يخالف الرسول ﷺ ويخالف أوامره وهو يعلم الحق، في هذا الشطر من الآية المخالفة والمعاندة هي للرسول ﷺ ولم يأت في هذا الشطر من الآية ذكر المؤمنين، ثم في الشطر الثاني قوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لم يأت في الشطر الثاني بذكر الرسول ﷺ، وكأن الفهم يكون، من يخالف أمر رسول الله ﷺ لا يتبع سبيل المؤمنين، والذي يتبع سبيل المؤمنين ويتبع عملهم وتطبيقهم للنصوص ويقبل فهمهم فهذا يكون بعيداً عن الشقاق وبعيداً عن المخالفة ويكون على الحق، فاتباع الصحابة والتابعين وقبول رأيهم وفهمهم يصبح أمراً الزامياً فيه الحق والنجاة والفوز، ومخالفتهم توجب الخسران وتؤدي إلى جهنم وبئس المصير.

5 - وحتى يقيم الله سبحانه الحجة على الناس فقد عاش الصحابة زمناً طويلاً وذهبوا إلى الأمصار والأقطار وخالطوا الناس، وذلك ليتم تبليغ الرسالة وليتم تبليغ

النصوص وليتم تبليغ فهم الصحابة ولا يكون لأحد حجة بعدها ولذلك نرى أن:

1 - آخر من مات من الصحابة بمكة عامر بن واثلة الليثي (110) هـ.

2 - آخر من مات بالمدينة محمود بن الربيع الأنصاري (99) هـ.

3 - آخر من مات بالشام واثلة بن الأسقع الليثي (86) هـ.

4 - آخر من مات بحمص عبد الله بن بسر المازني (96) هـ.

5 - وآخر من مات بالبصرة أنس بن مالك الأنصاري الخزرجي سنة (93) هـ، وقد روى عن رسول الله ﷺ (2286) حديث.

6 - وآخر من مات بالكوفة عبد الله بن أبي أوفى الأسلمي (87) هـ.

7 - وآخر من مات بمصر عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي (89) هـ.

لقد تأخر موت هؤلاء حتى يُسمعوا خلقـًا كثيراً، وحتى تكثر طبقة التابعين، وحتى يبينوا كلام الله تعالى وكلام رسول الله ﷺ، والفهم السليم والتطبيق السليم للوحي القرآني والوحي النبوي، وحتى يتحقق قوله ﷺ الذي رواه البخاري: «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم».

- وسبيل المؤمنين في الدنيا واحد، طريق المؤمنين واحد، وهم مع بعضهم في الدنيا على بُعْد السنين بينهم، وهم مع بعضهم في الآخرة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الحديد: 57/ 12].

6 - بهذه الآية الكريمة نقيم الحجة على المخالفين في أي زمن وفي أي مكان، فالذين يَدَّعُون العلم اليوم ويخرجون علينا بفتاوى ما أنزل الله بها من سلطان، ولا قالها رسول الله ﷺ ولا فهمها الصحابة الكرام ولا أقروها، نقول لهؤلاء وأمثالهم: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: 4/ 115].

والمخالفات اليوم كثيرة جداً؛ في الحجاب، وفي الاختلاط، وفي الغناء، وفي الاتصالات عبر الهاتف، وفي الأحاديث بين الشباب والشابات، والربا المتفشي بين مؤيد ومعارض وبين محلل وشاك في حرمته، والبدع المنتشرة، والضلالات الكثيرة. فالبدع اليوم هي بدع حسنة، والبدع اليوم هي سنة حسنة، والاختلاط ضرورة، والبنطال الضيق للنساء ضرورة، والبيرة بلا كحول بنسبة قليلة غير مسكرة وبعضهم يُوصِّفُها في قوله: قليل ضاع في كثير، فهي غير حرام. والوشم، والقزع، والتخنث، وتشبه النساء بالرجال، وقارئة الفنجان، وأصحاب الأبراج الذين يَقُصُّون على الناس المغيبات والمستقبل، فصار بعض النساء لا يخرجن من بيوتهن قبل أن يسألوا ويطالعوا ما حظهم اليوم؟ وما سيلاقونه؟ وطلب الطلاق من الزوجات لأتفه الأسباب، أهذا هو الإسلام وهذا هو نهج الصحابة؟!

لقد صدق رسول الله ﷺ فعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «تفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلهن في النار إلا واحدة؛ ما أنا عليه أنا وأصحابي» رواه الطيالسي وغيره، وعن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة أعظمها فتنة على أمتي قوم يقيسون الأمور برأيهم فيحلون الحرام ويحرمون الحلال» الطبراني.

وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لقد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، ومن يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، وعليكم بالطاعة وإن كان عبداً حبشياً، عضوا عليها بالنواجذ فإنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما قيد انقاد» مسند الإمام أحمد والطبراني.

ثم هناك طامة أخرى وهي الأحاديث الموضوعة والمنكرة والتي لا أصل لها، والأحاديث الشديدة الضعف، خاصة والتي تخالف أصلاً أو قاعدة من قواعد الإسلام، فيقوم الخطباء بإلقائها على المنابر وتنتشر بين الناس ويعتمدون عليها،

ووالله لخطبة واحدة تحتاج إلى عشرة علماء لكي ينظفوا الخطأ الذي انتشر، إذا كان المجتمعون في صلاة الجمعة خمس مئة شخص وانتشر الخطأ بينهم، أيكفي عشرة علماء لتصحيح هذا الغلط؟ والمصيبة الأكبر لو حاولت أن تنصح الخطيب وتبين له الخطأ لجادلك وخاصمك واجترأ عليك وسفه كلامك وأتاك بالعجب العجاب والله والمستعان، ولو تكلمت عن لباس النساء وزينتهن والعطر الذي يضعونه وطلاء الأظافر الذي لا يصلح معه وضوء، ولا إسقاط جنابة، ولا طهارة من حيضة، لسمعت منهن ما الله به أعلم، ولو تكلمت في البطاقات البلاستيكية، والضمانات الربوية والحسابات الربوية، والاستثمارات الربوية. لجاءك اجتهادات ما سمع بها أباك ولا شيخك، ولجاءك تفنيدات ما علم بها ابن قدامة ولا ابن حنبل رضي الله عنهما. ولو تكلمت في الخلع والطلاق البدعي، والطلاق الرجعي، والطلاق البائن، لكنت ما كنت والله المستعان، ولنعتوك بأنك متحجر ورجعي ولا تفهم في فقه الواقع ولا فقه المستجدات أو فقه النوازل، اللهم اغفر لنا جميعـًا، وارحمنا جميعـًا، وردنا إلى دينك رداً جميلاً، واجعلنا من الذين يعتصمون بسنة نبيك الصحيحة، ويتبعون سبيل المؤمنين، واحشرنا معهم تحت لواء سيد المرسلين في ظل عرش رب العالمين.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعـًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبقَ عالمٌ اتخذ الناس رؤوسـًا جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا» ق - حم - ت - هـ.

وعن أبي أمامة (صُدي بن عجلان) رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم، إن الله عز وجل وملائكته وأهل السموات والأرضين حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير» الترمذي - صحيح الجامع (2685).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لعن الله الربا وآكله وموكله وكاتبه وشاهده وهم يعلمون، والواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة

والنامصة والمتنمصة» الطبراني - صحيح الجامع (5094) - الترغيب والترهيب، وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «لعن الله الرَّجُلَةَ من النساء» صحيح سنن أبي داود - المشكاة (4470)، وعن ابن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لعن الله الخمر وشاربها، وساقيها، وبائعها، ومبتاعها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه، وآكل ثمنها» صحيح أبي داود - ك.

آية: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: 4/ 115]، ليست فقط في المخالفات الفقهية، أو المخالفات التعبدية، أو المخالفات التعاملية، ولكم أهم نقطة من كل هذا هي: المخالفات العقدية، والمخالفات العقدية تنقسم إلى قسمين: قسم مُخْرِجٌ من الملة، وقسم لا يُخْرِج من الملّة، واختلاف العلماء، وتفرق الطرق والمذاهب كلها جاءت من الاختلاف في فهم الأسماء والصفات، لذلك مذهب أهل السنة والجماعة هو الاتباع لما اتفقت عليه الصحابة والتابعون، نؤمن بصفات الله تعالى وأسمائه من غير تأويل ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، نمررها كما جاءت ولا نبحث عن كيفياتها، لأن القاعدة تقول: لا كيف مع أسماء الله تعالى وصفاته عملاً بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 42/ 11]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: 112/ 4]، ليس له مثيل ولا ند، لا في أسمائه ولا في أوصافه ولا في أفعاله وتصرفاته سبحانه وتعالى. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: 20/ 110]، لا يمكن للعقل البشري أن يفكر في ذات الله تعالى ولا في كيفية صفاته وأسمائه.

والمخالفات في تفسير النصوص القرآنية أو النصوص النبوية، إذا كانت هذه المخالفات تخالف قاعدة أو أصلاً أو تشريعاً من أمور الدين فهي مخرجة من الملّة إذا أقيمت الحجة على قائلها وبُيِّن له الحق ثم أَصر على المخالفة وتجنب الحق، وليست كل مخالفة مُخرجة من الملّة، وتفنيدات ذلك لا بد لها من علم ومرجعية وتدبر، اللهم اهدنا فيمن هديت، وعافنا فيمن عافيت، وتولنا فيمن توليت.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ...